المحاضرة التاسعة: مباحث الأدب المقارن: التأثّر والتأثير

تمهيد

يُعَدّ الأدب المقارن من أهمّ فروع الدراسات الأدبية الحديثة؛ لأنّه يدرس العلاقات بين الآداب في لغات وثقافات مختلفة، ويكشف عن جسور التواصل بينها عبر الزمن والمكان. وتُعدّ قضية التأثّر والتأثير من أبرز القضايا التي شغلت الدارسين في هذا الحقل، إذ يقوم عليها كثير من البحوث التي تتبع صِلات النصوص بعضها ببعض، وتبحث عن مصادر الإلهام والاقتباس والتناصّ بين الآداب الوطنية والعالمية.

ثانيا: معنى التأثّر والتأثير في الأدب

1. **التأثّر**

التأثّر في الاصطلاح المقارن هو انطباع يتكوّن في نصّ أو أدب ما نتيجة احتكاكه بنصّ أو أدب سابق أو معاصر، بحيث تظهر في النص الثاني عناصر فنية أو فكرية أو شكلية تُحيل إلى النص الأول إحالة يمكن تتبّعها تاريخيا وجماليا. وغالبا ما يفترض الباحث في التأثّر وجود صلة زمنية واتصالية بين الطرفين، كقراءة المؤلف لأعمال سابقة، أو اطّلاعه على ترجمة، أو معاشرته لوسط ثقافي يحمل تلك المؤثرات.

2. **التأثير**

أمّا التأثير فهو الفعل الذي يمارسه النص أو الأدب في غيره، أي القوة التي تجعل عملا معينا يصبح مرجعا أو نموذجا أو منطلقا لأعمال لاحقة، في الفكرة أو الشكل أو الرؤية الفنية. وبذلك يُنظر إلى التأثير بوصفه قدرة النص الأول على

الانتشار والامتداد في نصوص أخرى، فيتحوّل إلى مصدر إلهام أو تقليد أو معارضة أو حوار نصّي، تبعا لطبيعة تلقيه في بيئات مختلفة.

3. العلاقة بين المفهومين

يتقابل المفهومان تقابلا نسبيا؛ فكلّ تأثير عند طرف ما يقابله تأثّر عند الطرف الآخر، غير أنّ زاوية النظر هي التي تحدّد اختيار المصطلح. فإذا ركّز الباحث على النصّ الذي يصدر منه الفعل تحدّث عن تأثيره، وإذا ركّز على النص الذي استقبل ذلك الفعل وظهر أثره تحدّث عن تأثّره، مع ضرورة الاحتياط من التبسيط المفرط الذي يحوّل النصوص إلى مجرّد نسخ منسوخة.

ثالثا: التطوّر التاريخي لقضية التأثّر والتأثير

ظهر الاهتمام بقضية التأثّر والتأثير في بدايات تأسيس الأدب المقارن، ولا سيما مع المدرسة الفرنسية التي ركّزت على تتبّع الصلات التاريخية الموثّقة بين الآداب. فكان المقارن يبحث عن «مصادر» و«مراجع» للنصوص، ويعدّ النص المتأثّر تابعاً للنص المؤثّر، مع العناية بإثبات أسانيد الاتصال من رسائل وسفر وترجمة وغيرها.[3][4]

ومع تطوّر الدراسات النقدية، تعرّض هذا التصوّر لانتقادات؛ لأنه يختزل النص المتأثّر في صورة ظلّ باهت، ويتجاهل قدرة المبدع على إعادة تشكيل ما يتلقّاه وفق خصوصية ثقافته وذائقته ولغته. لذلك برزت مناهج جديدة مثل نظرية التلقي، التي جعلت القارئ شريكا في إنتاج المعنى، ونظرية التناصّ التي رأت أنّ النصّ فضاء

تتقاطع فيه نصوص سابقة ومعاصرة في شبكة معقّدة من العلاقات، لا تقتصر على علاقة «أصل» و«فرع».

رابعا: شروط دراسة التأثّر والتأثير

لا يكفي في الحكم بالتأثّر مجرّد التشابه بين موضوعين أو صورتين؛ لأنّ الآداب قد تلتقي عفويا في معالجة قضايا إنسانية مشتركة. لذلك وضع الباحثون شروطا منهجية، من أهمّها:

- ثبوت إمكانية الاتصال، كاطّلاع الكاتب على لغة النص المؤثّر، أو وجود ترجمة متاحة، أو وساطة ثقافية معروفة تاريخيا.
- تكرار أوجه التشابه في أكثر من موضع بحيث يصعب تفسيرها بالمصادفة وحدها، مع وجود عناصر تركيبية مشتركة في البنية السردية أو الشعرية.
- مراعاة سياق التلقّي في البيئة الجديدة، إذ قد يتحوّل العنصر المأخوذ إلى بنية جديدة تُعيد إنتاج المعنى بما ينسجم مع خصوصية الثقافة المتلقّية.

بهذه الشروط يصبح حديث الباحث عن التأثّر والتأثير حديثا علميا منضبطا، يبتعد عن الأحكام الانطباعية والاتهامات السطحية بالسرقة أو التقليد، ويقترب من فهم حقيقي لرحلة النصوص بين اللغات والحضارات.

خامسا: من التأثّر والتأثير إلى التناصّ والتلقي

أدّى نقد التصوّر الكلاسيكي للتأثّر والتأثير إلى توسيع زاوية الرؤية، فبرز مفهوم التناصّ الذي يرى النصّ الأدبي نسيجا من الإحالات، يكتب فيه المؤلف وهو يحمل في ذاكرته نصوصا دينية وأسطورية وتاريخية وأدبية سابقة. ولم يعد السؤال: «مَن تأثّر

بمَن؟» هو السؤال المركزي، بل أصبح الاهتمام منصبا على كيفية اشتغال هذه النصوص الغائبة داخل النص الحاضر، وما تضيفه من دلالات جديدة في سياقها الراهن.

كما أسهمت نظرية التلقي في تحويل الاهتمام نحو القارئ، إذ يُصبح التأثير عملية تتكوّن لحظة قراءة النص، لا صفة ثابتة فيه؛ فالنص الواحد قد يؤثّر في قرّاء مختلفين بطرائق متباينة بحسب تجاربهم وثقافاتهم. وبذلك تتّسع دراسة التأثّر والتأثير لتشمل علاقة القارئ بالنص، إضافة إلى علاقة النصوص بعضها ببعض، في إطار رؤية دينامية للحركة الأدبية عبر الزمن.

سادسا: مثال تطبيقي (نموذج مختصر)

لنفرض وجود رواية عربية معاصرة تستلهم بنية «الرحلة» كما وردت في رواية غربية شهيرة، فتبدأ ببطل يغادر وطنه، ويواجه سلسلة من المحن، ثم يعود وقد تغيّر وعيه بنفسه وبالعالم. في دراسة التأثّر والتأثير يبحث الباحث عن مدى اطّلاع الكاتب العربي على الرواية الغربية، وعن وجود ترجمة في زمن الكتابة، ثم يقارن البنية السردية والعناصر الفنية من حيث ترتيب الأحداث، ونمط السارد، وبناء الشخصيات، والفضاء المكاني.

إذا تبيّن أنّ الكاتب قرأ الرواية الأجنبية، وأنّ التشابه يتجاوز الفكرة العامة إلى تفاصيل البناء واللغة والصور، أمكن الحديث عن تأثّر واعٍ، مع ضرورة الانتباه إلى الكيفية التي حوّل بها الكاتب تلك العناصر لتعبّر عن قضايا مجتمعه المحلي. أمّا إذا كانت القضايا المطروحة إنسانية عامة، والتشابه محدودا، فإنّ الباحث يتحفّظ في الحكم، ويفضّل الحديث عن «تقاطع» أو «تشابه» لا عن تأثّر مباشر.

سابعا: أهمية دراسة التأثّر والتأثير للطالب

تساعد دراسة التأثّر والتأثير الطالب على فهم أنّ النصّ الأدبي لا يولد من فراغ، بل يندرج في سلسلة متصلة من الأعمال والأفكار والصور التي تتجدّد في كل عصر. كما تعلّمه احترام خصوصية كلّ ثقافة، والابتعاد عن الأحكام التبخيسية التي ترى في التأثّر شكلا من أشكال الضعف أو التبعية، بل تجعله يدرك أنّ الإبداع الحقيقي قادر على تحويل ما يتلقّاه إلى رؤية جديدة مميزة.

ومن خلال هذا الدرس يتدرّب الطالب على استخدام المنهج المقارن استخداما نقديا واعيا، فيتعلّم كيف يوثّق مصادره، وكيف يوازن بين المعطيات التاريخية والتحليل الجمالي، وصولا إلى قراءات أكثر عمقا للنصوص العربية والعالمية.

المصادر والمراجع:

- قضية التأثير والتأثر في اتجاهي التاريخ والجدل في الأدب المقارن، عبد الجليل ت، مجلة نداء الهند .
- منهجية التأثّر والتأثير في الأدب المقارن من خلال السرد الجزائري، سي الطيب ميلود . https://asjp.cerist.dz/en/article/119012
- حسام الخطيب: آفاق الأدب المقارن
- سعيد علوش: مدارس الأدب المقارن